الفصل الثالث
مذكرات السعي وراء المال

خارج جامعة بكين:

بعد عدة سنوات، ومع مضي الأيام كالرياح، ظل يو مين هونغ يستعيد ذكريات هذه الأيام، حتى تحولت مشاعره تجاه جامعة بكين، من المشاعر القوية إلى الفاترة. فجامعة بكين التي جعلته يتذوق فرحة النجاح، هي نفسها التي جعلته يتجرع عذاب الفشل، ولكن وراء كل هذه الإخفاقات تكمن نجاحاته. ففشله في امتحان قبول الجامعة جاء بعده التحاقه بجامعة بكين، وتعرضه للعقاب من قبل جامعة بكين جاء بعده تأسيسه للشرق الجديد. استرجع يو مين هونغ ذكرياته بكل هدوء قائلًا: "لا أستطيع إنكار أن كل ما حققته وما أنا عليه الآن، يعود فضله كاملًا إلى جامعة بكين، مهما كانت الطريقة التي منحتني بها إياه".

في تلك اللحظة التي استسلم فيها يو مين هونغ لمشاعره، وقرر ترك منصبه بالجامعة، ربما أنه لم يفكر كثيرًا من أين سيجد مصاريفه اليومية، ولكن الأهم عنده كانت الراحة التي شعر بها فجأة بعد اتخاذه هذا القرار.

obeikandl.com

أنهى يو مين هونغ حياته في مجال التدريس بجامعة بكين، وغادر حديقة يان الخلابة، وودع ثقافتها المتهادية كالأمواج، وانتقل من تلك الغرفة – التي على الرغم من صغرها إلا أنه يعتبرها شقته الصغيرة الدافئة – ليودع حياته المستقرة ذات الراتب والشقة.

ودع يو مين هونغ الماضي، وقرر المضي قدمًا في حياته. كانت عائلته هي أهم ما في حياته. لذلك قرر أن يبدأ بالبحث عن مسكن. لم يكن راتبه عاليًا ولا لديه أي مدخرات، ولكنه الآن حتى الوظيفة فقدها، وانقطع معها مصدر رزقه؛ لذلك وجب عليه إيجاد مسكن منخفض الإيجار قدر المستطاع.

منذ عام 1991 – بعد مغادرته جامعة بكين وحتى عام 1993 – اشترى مسكنًا ريفيًّا بسيطًا، في خلال هذه الفترة القصيرة، انتقل يو مين هونغ مع أسرته بين خمسة مساكن مختلفة.

بعد أن أصبح بلا مأوى، استقل يو مين هونغ دراجته، متنقلًا بحثًا عن مسكن. كان معدل الإيجار في المدينة مرتفعًا .. لم يستطع يو مين هونغ تحمل تكاليفه، فقرر استئجار مسكن فلاح في قرية ليولانغ تشوانغ بضاحية المدينة، ولكن كان سعر الإيجار يتراوح ما بين 50 إلى 80 يوانًا، وهذه التكلفة أيضًا لا يستطيع أن يتحملها. بدأ الشعور بالإحباط يتسلل

إلى نفسه، ولكنه لم يفقد الأمل .. رأى ولدًا يقوم بأداء واجباته المدرسية في بيت مزارع معروض للإيجار، فجاءت فكرة تبادل المنفعة في ذهنه، وتتلخص هذه الفكرة أن يساعد يو مين هونغ وزوجته ابن المزارع في أداء واجباته المدرسية مجانًا، وضمان تحسن نتائج ابنهم، وأن يصبح من العشرة الأوائل بعد أن كان الأكثر فشلًا في فصله، مقابل أن يمنحهما المسكن مجانًا، وقد اقتنع صاحب السكن، ووافق على تأجير المسكن لهما مجانًا. سكن الزوجان المنزل، وارتفعت نتيجة الولد ليصبح من الخمسة الأوائل، وسعد الجميع بهذه النتيجة. أعاد هذا الأمر ليو مين هونغ تفكيره الحماسي ونشاطه مرة أخرى.

بعد مرور عامين على إيجارهم لهذا المسكن، استعد الزوجان للانتقال إلى المدينة، ولكن الفلاح وزوجته طلبا منهما البقاء لمساعدة ابنهما باستمرار، واقترحا عليهما السكن في الغرفة الأكبر في المنزل. وافق يو مين هونغ وزوجته على استمرار إعطاء الدروس لابنهما، وبعد أن انتقل إلى المدينة، كان عليه أن يذهب هو إليهما مرتين في الأسبوع.

ظل يو مين هونغ ينتقل مع أسرته من منزل إلى منزل لأكثر من عام. حتى نهاية عام 1993، تحسنت حالة فصل "الشرق الجديد" للتدريب تحسنًا طفيفًا، وبدأت تأخذ مسارها الصحيح بشكل تدريجي، وأصبح يو

مين هونغ يمتلك بعض المدخرات، فقرر شراء منزل في الريف به ساحة كبيرة في بلدة تشينغ لونغ شياو ثمنه عشرة آلاف يوان.

أجاد يو مين هونغ كل أنواع امتحانات GRE وTOEFL؛ بفضل التجارب الثلاث التي مر بها استعدادًا للسفر إلى أمريكا للدراسة، فضلًا عن خبرته معلمًا للغة الإنجليزية لسنوات عديدة، وتجربته في العمل بمختلف أنواع فصول التقوية، كل هذا جعله في مجال التدريب على اللغة الإنجليزية حرًّا كالسمكة في الماء. كان العمل في فصل التدريب بالنسبة إلى يو مين هونغ هو مجرد تغيير مكان العمل بعد تركه لجامعة بكين. فهو ما زال يعمل في مجاله نفسه، ويعتقد يو مين هونغ أنه إذا كان واصل عمله في جامعة بكين ذات المرتب الضئيل، كان سيظل حلم السفر إلى أمريكا مجرد أحلام وردية كالفقاعات لن يستطيع تحقيقه.

من خلال تجربة يو مين هونغ وخبرته، وعلى الرغم من أن إنشاء فصل التدريب لم يكن بالأمر السهل، وأنه كان سيبدأ من الصفر، محاطًا بالعديد من المخاطر – إلا أنه رجح الاحتمالية الأكبر للنجاح. إن يو مين هونغ – الذي اعتقد اعتقادًا راسخًا بنتيجة هذا الطريق، وتشبث به ليحقق حلمه في السفر – اعتبر عقابه هذا فرصة جيدة لمستقبل لا حدود له؛ لذلك قرر أن يخطو إلى خارج بوابة جامعة بكين بدون تردد؛ لكي يبدأ في تحقيق حلم السفر إلى الخارج.

كل شيء في بدايته صعب، وقد كانت بدايات يو مين هونغ شاقة، فبالرغم من حياة العناء والمشقة التي تكبدها طوال حياته، ومعاناة الاعتماد على الآخرين التي كان يعانيها، لكنه ظل يعيش حياته بنظرة التفاؤل المليئة بالآمال والطموحات. ترأس يو مين هونغ منصته أخيرًا، وبدأ الحياة الجديدة التي يلعب فيها دور البطل، هذه الحياة الجديدة التي سينتج عنها تفتح البراعم والزهور الجميلة.

كان يو مين هونغ كالذي بداخله حقل ألغام، يكتنفه عقابه مثل المياه المحيطة بجامعة بكين، وقد استطاع التخلص من الأزمة النفسية التي سببتها له، ووجد له مخرجًا لبدء حياة جديدة وعالم جديد، فهو الذي وضع نفسه في أحضان اليأس، وهو نفسه الذي تمسك ببصيص الأمل؛ ليبدأ في العمل بكل جد واجتهاد.

"مدرسة الزوجان" لتعليم اللغة الإنجليزية:

من يمكن أن يتوقع أن مدرسة الشرق الجديدة الموجودة اليوم هي التي أنشأها يو مين هونغ في غرفة قديمة متهالكة تابعة للمدرسة الابتدائية الثانية بتشونغ قوان تسون، والتي لم يكن بها سوى بضعة مكاتب وكراسي قديمة. أقام يو مين هونغ هذه المدرسة باسم جامعة الشرق الأهلية، وقام بتعليق لافتة مكتوب عليها "قسم تعليم اللغة

الإنجليزية بجامعة الشرق"، لكن في الواقع هذه المدرسة هي "مدرسة الزوجان". فبذلك أصبح "قسم تعليم اللغة الإنجليزية بجامعة الشرق"، الذي كان قبل ذلك رثًّا متهدمًا، يديره الآخرون، هو اليوم مدرسة الشرق الجديد الساطعة.

بعد مغادرة جامعة بكين، عاد يو مين هونغ إلى جامعة الشرق الأهلية التي كان يعمل فيها من قبل بدوام جزئي؛ ليواصل تعليم اللغة الإنجليزية لكسب لقمة العيش، والحفاظ على مصدر رزقه .. "ولكن بعد فترة، شعرت بتقيد أفكاري فأنا دائمًا أعمل لحساب الآخرين" .. يقول مين هونغ. يريد يو مين هونغ أن يعمل لحساب نفسه، فتناقش مع جامعة الشرق الأهلية لتأسيس مكتب تعليم اللغة الإنجليزية خارج الجامعة ولكن باسمها. وافقت جامعة الشرق بكل سرور، فهي ستقدم اسمها فقط، وستربح من ورائه الأموال. ومن ثم أبرم الجانبان الاتفاقية التي تنص على أن يقدم يو مين هونغ 15٪ من دخل الإدارة لجامعة الشرق.

وأخيرًا بدأ يو مين هونغ في الانطلاق وحده. في شتاء عام 1991، كان المناخ قارس البرودة، استأجر الزوجان غرفة بسيطة في المدرسة الابتدائية الثانية بتشونغ قوان تسون، ووضع يو مين هونغ مكتبًا وكرسيًّا خارج الغرفة، وعلق لافتة "قسم تعليم اللغة الإنجليزية بجامعة الشرق" على الجدار، وبهذا بدأ عمله الخاص بشكل حقيقي.

في تلك السنة، كان عمر يو مين هونغ 29 عامًا .. كان يهدف لكسب رسوم الدراسة للتخلص من مشقات الحياة، ثم يسافر إلى أمريكا لاستكمال دراسته مثل باقي زملائه وأصدقائه. المدرسة كلها كانت تحتوي على مدرسين اثنين فقط، وهما: هو وزوجته. في كل صباح يستقل يو مين هونغ دراجته، حاملًا الغراء، ويقوم بلصق إعلانات المدرسة على كل عامود يقابله. ويعود بعد الظهيرة إلى المكتب؛ لينتظر مع زوجته الطلبة التي ستأتي إلى المكتب للتسجيل.

في أول يوم، جاء طالبان، نظرا إلى اللوحة الكبيرة المكتوب عليها "قسم تعليم اللغة الإنجليزية بجامعة الشرق"، ثم وقع نظرهما على الزوجين والبيئة المحيطة بهما؛ حيث المكاتب والكراسي المتهالكة والغرفة المتهدمة، ثم نظرا إلى كشف الأسماء الذي كان يوضح أنه لم يسجل أي شخص فيه من قبل. علت وجوههما نظرات الشك والريبة تجاه الزوجين، وظنا أنهما مخادعين. استعمل يو مين هونغ فصاحته التي اكتسبها طوال سنين عمله مدرسًا للغة الإنجليزية، وظل يتحدث طويلًا، إلى أن أقنع هذين الطالبين أخيرًا للتسجيل ودفع رسوم الدراسة.

تنفس الزوجان الصعداء بعد أن ذهب الطالبان وقاما بالتسجيل، ولكن لم تدم سعادتهما طويلًا، فقد عاد إليهما الطالبان، وقالا لهما إنهما نادمين ويريدان استرجاع أموالهما.

بقي الزوجان في المكتب لأكثر من أسبوع. كان عدد الزوار يتزايد يوما بعد يوم ولكن جميعهم بمجرد أن ينظروا إلى دفتر التسجيل يرحلون في الحال. بمهارة يو مين هونغ، استطاع أخيرًا إقناع ثلاثة طلاب بالتسجيل. لم يكن يدرك يو مين هونغ السبب، وظل يتساءل: لماذا يتوافد عليه العديد من الناس ولا يقومون بالتسجيل؟

في النهاية، توصل يو مين هونغ للسبب، وهو أن الناس يتبعون بعضهم، ولديهم عقلية القطيع، فعندما يجدون دفتر التسجيل لم يدون به غير أسماء قليلة يراودهم الشك ويرحلون. بعد تفكير طويل خطرت على ذهنه فكرة رائعة لجذب الناس للتسجيل. في اليوم التالي ملأ كل دفاتر التسجيل بثلاثين اسمًا من وحي خياله، وبذلك سيعتقد كل من يأتي أن هناك الكثير من الطلاب قاموا بالتسجيل من قبله، لذلك عليه أن يقوم بالتسجيل فورًا، وإلا فربما لن يستطيع التسجيل بعد ذلك. نجحت هذه الحيلة التي قام بها، ولكن ما زال بعض الطلبة يشككون في أن تكون هذه الأسماء حقيقية.

تتطور مدرسة التدريب يومًا فيومًا، وأصبحت أكثر حيوية، فبدأ يفكر يو مين هونغ أن يستقل بها عن جامعة الشرق وتصبح مدرسة خاصة له. في نهاية عام 1992، قرر يو مين هونغ تأسيس مدرسة التدريب الخاصة

به، ولكنه في حاجة إلى ترخيص. من إجراءات ترخيص المدرسة أن يكون المتقدم أستاذًا مساعدًا فيما أعلى، وأن يكون حاصلًا على موافقة المؤسسة التي كان يعمل بها سابقًا. كان المسمى الوظيفي ليو مين هونغ في الجامعة مدرسًا فقط، ومن أجل أن يحصل يو مين هونغ على ترخيص المدرسة، كان يذهب أسبوعيًّا إلى مكتب تعليم الكبار في حي هايديان ببكين، حاملًا معه علبة من السجائر، فيتبادل معهم أطراف الحديث ويدخنون سويًّا. بعد ستة أشهر من الذهاب والإياب، أصبح يو مين هونغ معروفًا لدى موظفي هذا المكتب. فتناقش مرارًا وتكرارًا، حتى وافق المكتب أخيرًا على منحه ترخيص المدرسة التجريبية لمدة نصف عام فقط، واشترطوا عليه إذا تلقوا أي شكاوى سيقومون بسحب الترخيص منه.

وهكذا، في نوفمبر عام 1993، أسس يو مين هونغ رسميًّا مدرسته "مدرسة الشرق الجديد ببكين".

كان حلم يو مين هونغ هو أن يجعل مدرسة الشرق الجديد واحدة من أفضل المؤسسات لتعليم اللغة الإنجليزية في الصين، فهو كالذي يرغب ببناء منزل كبير، وكل طالب يحضر محاضرة كأنه يجلب له لَبِنة لبناء هذا المبنى.

من أجل توسيع نفوذ المدرسة، وتحقيق حلمه في أسرع وقت، والحصول على عدد أكبر من الطلبة، قام يو مين هونغ بعمل دعاية، وكان

محتواها: الفصل الذي سيكون عدد محاضراته أكثر من أربعين محاضرة ستكون المحاضرات الثماني الأولى مجانًا، من يعجب بهذا العرض يقوم بالدفع، ومن لم يقتنع به ينصرف في الحال.

في كل الأحوال، ستكون أول ثماني محاضرات مجانًا، فلماذا لا نستمع إليها؟! بعد انتشار خبر مجانية المحاضرات الأولى توافدت أعداد غفيرة من الطلاب.

في شتاء عام 1992، قام يو مين هونغ بإلقاء محاضرة مجانًا في قاعة مكتبة بكين، القاعة التي تتسع لـ 1500 فرد كانت مكتظة عن آخرها بالناس.

عندما بدأ يو مين هونغ في إلقاء محاضرته، كانت هناك العديد من الأصوات القادمة من الخارج تدعو الأستاذ يو، وظلت الأصوات تتعالى وتتعالى، فوجد يو مين هونغ أنه ما زال هناك بالخارج أكثر من ألف شخص. فأسند المحاضرة داخل القاعة إلى زميله، وذهب مع الموجودين بالخارج إلى الملعب. تركت تلك المحاضرة انطباعًا عميقًا في ذاكرة يو مين هونغ، قال: "لن أنسَ – طوال حياتي – هذه المحاضرة، حيثما كنت أقف فوق سلة المهملات لألقي أول محاضرة مجانية للغة الإنجليزية".

هبت الرياح القارسة على رءوس آلاف المستمعين، فكان التعطش يملأ عيون الشباب، بينما كانت الحماسة تغمر يو مين هونغ. حينما رأى يو

مين هونغ هذه الملامح الطفولية، أدرك أن ما يستطيع تقديمه لهؤلاء الشباب هو أن يمنحهم الأمل والثقة. قال بصوت عالٍ حتى يكاد يصبح قول فيلسوف حكيم: "Hewing out of the mountain of despair a stone of hope!" (إخراج حجر الأمل من جبل اليأس). "جميعنا متشابهون، فمثلًا أنا وأنت اخترنا هدفًا ولكن لا يوجد أحد يمهد لنا طريقًا مختصرًا؛ لأن الناجحين أخبرونا: "God only help those who help themselves!" (إن الله يساعد الذين يساعدون أنفسهم)".

جذب يو مين هونغ – بحماسته وطريقة تدريسه الفريدة – عددًا كبيرًا من الشباب الذين يحلمون بالسفر إلى الخارج .. "هيا لنستمع إلى محاضرة الأستاذ يو" .. أصبحت هذه الجملة رسالة يتناقلونها بينهم للحصول على النجاح.

لم ينفق يو مين هونغ قرشًا للإعلان في الوسائل الإعلامية، فقد اعتمد على أن يهتف بصوت عالٍ وهو قائم على سلة القمامة؛ ليؤثر قلوب الطلبة، وقد تناقلت ألسنتهم هذه القصة حتى ذاع صيت مدرسة الشرق الجديد في بكين.

النجاة من خطر داهم، وعدم اتخاذ الطريق المعتاد:

قبل تأسيس مدرسة الشرق الجديد، كان راتب يو مين هونغ ضئيلًا جدًّا كمدرس في جامعة بكين .. كاد ينفق كل ما يملك من أجل السفر إلى

أمريكا، واضطُّر إلى العمل في مؤسسات التدريب الأخرى لإطعام أسرته وجني الأموال من أجل السفر إلى أمريكا.

من خلال متابعته للوضع داخل العمل، لاحظ يو مين هونغ أن هناك عيوبًا كثيرة في مدارس التدريب من حيث التعامل مع الدارسين، وفي مجال الإدارة، ساعده ذلك على إرساء أساس جيد لمدرسة التدريب الخاصة به. فعندما كان يرى "موقف بعض مدارس التدريب تجاه الدارسين كأنها لا تهتم سوى بالمال"، يشعر بأن هذا خطأ. فهو يعتقد أن الطلبة الذين ينفقون النقود للمشاركة في تدريبات امتحانات TOEFL وGRE كلهم متفوقون في الجامعات، ومجرد دراسة بشكل جيد لا ترضي متطلباتهم. في بداية إنشاء مدرسة الشرق الجديد، كان يو مين هونغ يعي جيدًا أن "التدريس والمادة العلمية في المقدمة وليس الربح". فبالإضافة إلى نقل المعرفة إلى الطلبة والشرح الوافي للمحتوى، كذلك اهتم بخلق جو ثقافي داخل حرم المدرسة، وغرس فلسفة الحياة في عقول الطلبة، والتعبير عن ذلك بطريقة فكاهية. وقد أثر ذلك على كثير من المدرسين والمدرسات في مدرسة الشرق الجديد، حتى أصبحت فصول الشرق الجديد ذات طابع فريد يميزها عن غيرها، وتناقلت الألسن الكثير من القصص الفكاهية والطرائف.

استطاع يو مين هونغ التمسك بسمات العصر، من خلال استخدامه طريقة فلسفة الحياة. بعد مرور عدة سنوات، لاحظنا أن طريقة يو مين هونغ هذه تتلاءم مع "إستراتيجية المحيط الأزرق" الشائعة. لم يركز جهوده الرئيسة على الفوز على منافسيه، بل صب اهتمامه على بناء الجو الروحي للطلبة، ومساعدتهم تحقيق ذاتهم. خلقت مدرسة الشرق الجديد لنفسها سوقًا بلا منافس، وفازت على كثير من المنافسين، وتركتهم وراءها، وأخذت تخطو خطوات بعيدة لم يستطع أحد اللحاق بها.

أن تجيد فعل شيء يعني أن تكمل أمرًا بسيطًا على أتم وجه، وأن تفكر في الآخرين. فكلما كان المنطق بسيطًا كلما احتوى على قوة هائلة بلا حدود.

***

obeikandl.com